E-KUTUB
Publisher of publishers
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office
Linden Strasse 22, Bruchweiler 55758/
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132

اتكأ أحمد فوق كتف صديقه وذهب بغفوة عميقة والآخر يهدهده بكل سلام وطمأنينة:

– لا شيء يتحرك من تلقاء نفسه! دائمًا هناك أسباب، هذا هو النمط الأبدي، العودة إلى الهدوء والسكينة، وحين يختفي الجسد في خضم محيط الوجود سيكون بعيدًا عن كلّ أذى.

دون الآخر، والأخير يضحك بشكل هستيري شامتًا من الجميع، والأم تنظر بوجه السائق بهدوء ورضا فقالت له:

– أولادي سينالون اهتمامًا ورعاية مع أمي وأبي أكثر مما لو كانوا معي. كذلك أمي وأبي سينالان السعادة والبهجة مع أطفالي، وشباب الجامعة عادوا للغناء والرقص يستذكرون أجمل أيامهم..

أما الزوجة فقد مالت برأسها على صدر زوجها بغفوة عميقة. وعادت مشاكسات أحمد لعلي حول الوجود وعدمه والمرئي واللامرئي، إلى أن نال صفعة أخرى على قفا رقبته.

وسائق الحافلة ما زال يدور وينتظر الوصول إلى المحطة الأخيرة، وكلب عجوز الزهور يجلس تحت قدميها وهي تداعب وريقات تلك الباقة بأنامل متيبسة تجردت من اخضرارها وترافتها كأقلام شجيرات تنتظر الشتل من جديد، وصرخات الصبية بوجه القاتل المجنون بفم متيبس من ماء ورده.

– هل تعلم؟ عرفتُ معكم أن للموت ألوانًا، وكنتُ على يقين من أن أحد ألوانه سيكون موتي. فلا فخر لك بهذا. فها أنت هنا معنا فلن تنال حضن الحور ولا حتى العور منهنّ!

ردّ عليها أحمد وهو ينظر لصديقه علي:

– أصبحنا في هذا الوطن موتى سائرين في حافلة، والأحياء مِنّا باتوا مجرمين!

كان الدخان كثيفًا تلحف به الفضاء وتلاشى في لحظة، تكدست النجوم وتجاذبت كأنها فقاعة كبيرة، وفم مارد أسود حوّلها إلى توابيت برفاتها. ابتلعها جميعًا في لحظة وبشهقة واحدة، زادت الأفواه السوداء كأنها أفاع تمتص بعضها، وأخذت تدور بحركة مستمرة مشكلة خاتمًا من وهج الأضواء، وأخرى مستقرة تتلاقى مع بعضها لتصبح أكبر وبشكل مهول.

أصبح المنظر أمامهم كأنه نقطة تلاشى فيها الزمان والمكان، وحتى الفضاء لم يعد موجودًا، كل شيء ولدّ في هذا الكون دخل في تابوت عبر فم المارد الجبار.

أدرك الجميع أن ذلك الشاب لم يكن مجنونًا حين كان يصرخ بأنهم ماتوا بقابسه. فهم الآن أموات، وأصبحوا مجرد غبار كوني يدور في حافلة حمراء.

استسلم الجميع لقدرهم وسادت الطمأنينة والسكون في أرواح الآخرين ليعود اللغط مرة أخرى فيما بينهم.

نال المجنون الضرب من أحد الشباب وتلك الصبية الهاربة من قبضته استنكارًا لفعلته.. رفض الجميع هذا المصير الذي جمع الجاني والمجني عليه في مكان واحد، وهم كانوا ينتظرون جانبًا أكثر اخضرارًا

لا تشعر بهما، واحتضنت الزوجة زوجها بقوة كانت تضغط على عظام صدره في محاولة منها يائسة للدخول بين حنايا قلبه، لتكون عظام قفصه الصدري ساترًا لها.

تجمدت أطراف أحمد وأمسك بيد علي وكاد يطحنها وهو يرتجف والآخر صار بحالة صدمة.

أما زملاء الجامعة فقد مسكوا أكف بعضهم، وزميلاتهم اتخذنّ لهنّ أماكن في وسطهم، تحتضن إحداهن الأخرى.

التصق كلب العجوز بين قدميها وهي تنظر بعيون شاخصة من خلال النافذة، والبعض الآخر سقط على أرض الحافلة مغشيًا عليه.

أما شاب القابس المتفجر فقد احتضن الرجل الذي بجانبه وكاد يسحق عظامه، والأخير أصبح قطعة خشب بلا روح.

كم يخشى الإنسان القوة إن امتزجت بجهله للأمور، لعل الخوف هو أقوى الغرائز التي ولد عليها الإنسان، بل لعلَّه أقوى من غريزة البقاء، والجهل يجعل من الخوف فريسة وحملًا ثقيلة، أهو الخوف من الموت أم من المجهول القادم إليهم!؟

شَقَّ ضوء أزرق برّاق من خلال نوافذ الحافلة ليصيب العيون بالعمى. هجم عليهم بشكل مرعب وغادرهم بذيل أحمر مبتعدًا عنهم، أصاب الجميع بالذهول والفزع وامتزج بالإبهار. تسمّر بالبعض على مقعده وآخرون راحوا ينظرون من خلال نوافذ الحافلة.

– أيها الشقي أين كنت!؟ من سنوات تركتني أعاني الوحدة والملل! آه كم اشتقت إليك حبيبي.

كان المنظر يشوبه السرور، والفرح بان على وجوه ركاب الحافلة، وفي مكان آخر أخذ الصراخ يعلو بين زملاء الجامعة وهم يحتضنون صديقًا لهم كان قد غادرهم على إثر حادث مروري، وراحت أسئلتهم كما المطر يوجهونها إليه– بالله عليك أين كنت!؟ ولمَ كل هذا الغياب!؟ فردّ عليهم زميلهم:

– كنت في الطابق الثاني من الحافلة وقد نزلت على صوت أغنياتكم أيها المشاكسون.

تبادلوا الاحتضان والقهقهات. وفي غمرة هذه الفوضى والفرح والضجيج اهتزت الحافلة بأصوات انفجارات عظيمة، ليس كمثلها أية انفجارات.

تسلل الخوف بشكل نوبات على جميع من كان في الحافلة، فشلّ جميع حواسهم، وارتعدت أوصالهم وأصبحوا لا يقوون على الحركة.

البعض وضع يده على فمه ليكتم صرخاته، وتسارعت دقات قلوبهم في تلاحق مستمر، وتسمرت أقدامهم كأوتاد شدّت بإحكام فوق الأرض. تقطعت أنفاسهم ونسوا شهيقها، وتعطلت حركة أناملهم وتجمدت أجسادهم كأنها أعمدة من الثلج.

وقفوا دون حراك والآخرون أغمي عليهم وتغير لون بشرتهم فأصبح أكثر شحوبًا. التصق الطفلان بأمهما وهي في حالة ذهول تكاد

مدَّت العجوز يدها للشاب لتهمّه على الوقوف والرقص معها، فأخذ الجميع يضحك بعلو صوته وأصحابه أخذوا يغنون لهما وأحاطوهما بحلقه من فرح وهم يصفقون.

نهَضَت أيضا تلك الزوجة مع زوجها، وأخذا يرقصان معهما، فتحولت الحافلة إلى صالة كبرى للاحتفال بين راقص ومصفق، وآخرون ينظرون بابتسامة مشرقة، وعاد المجنون يضغط على زر بنطاله إلى أن سقط البنطال أرضًا فلم يكن يرتدي تحته لباسًا داخليًا، فزادت من ضحكات الآخرين، ما جعله أكثر غضبًا وراح يشتم الجميع وينعتهم بأبشع الكلمات. فقال له أحد الشباب وقد سقط أرضًا من شدة الضحك وهو يمسك ببطنه:

- انظروا لهذا العصفور الصغير الذي ينام بين فخذيه، يريد نكاح الحوريات- تبًا- واستمر بقهقهاته والدموع تتساقط من تحت أجفانه المنسدلة.

نطق أخيرًا سائق الحافلة بجملة وعاد لصمته:

- اتركوه بالله عليكم، فهو مثير للشفقة.

قفز كلب كبير الحجم بشعر أبيض منسدل من جسده. عيناه بلون السماء الصافية، إلى أحضان المرأة العجوز، وراح يحتضنها بقوة كأنه طفلها، أسقطها أرضًا وراح يداعبها بلسانه وغطى وجه المرأة لعابه وهي تصرخ فرحًا:

يتحول كل شيء إلى الأسوأ، نَظَرُنا يتراجع فنحتاج إلى نظارات، سَمعُنا يقل لنطلب سماعات، نُصَاب بأمراض العظام فنحتاج إلى عصا نتكئ عليها، ناهيك عن عسر الهضم، ويبدأ الكل يبتعد عنكِ، ويجزعون شيئًا فشيئًا من كثرة شكواكِ.

فلن تعودي ذلك المعطاء، ولم يعودوا بحاجة إليكِ بل تتحولين إلى إسفنجة دائمة الامتصاص، وبأمسّ الحاجة إليهم. فليس في الشيخوخة رومانسية تذكر! حتى القلب يموت كلما كبرنا ويطلبون مِنَّا الصبر، والصبر ما كان صبورًا بنا.

ردّ عليها أحد شباب الجامعة وهو يضحك مع زملائه:

- يا ليتنا نصل لعمرك هذا جدتي. فأرواحنا ذهب عنها الأمل ورضعنا الشيب ونحن الشباب.

كان شابًا وسيمًا بوجه كما القمر...

نظرت إليه العجوز بإعجاب وراحت تحدثه بغنج ودلع كي تسرق منه ضحكات أخرى:

- آه يا قمري، يا ليت عمري كعمرك فحياتك أمامك وحياتي أصبحت خلفي، كم من وادٍ سرتُ فيه كي أبحث عن ضالتي، وضالتي اليوم أمامي! عذوبة، رقة، بياض كلها تشهد ليّ بالدليل أنه أنت! ماذا لو طوقتني برقصة تجمعنا معًا يا طوق الياسمين!؟

ساد الحافلة هدوء غير معتاد، لم يخترقه سوى صوت تلك المرأة التي تجلس بالقرب من السائق:

– سيدي لماذا هذا التباطؤ في السير! أولادي ينتظروني. ألم أقل لك إني تركتهم عند أمي وأبي وهما كبار في السن، لعلهما تعبا من كثرة متابعتهما. فأولادي في حراك مستمر ومطارداتهم لا تنتهي.

– سيدتي هناك سرعة لا أستطيع تجاوزها وها أنا أسير والذي يصل لمحطته يقرع الجرس، وما عليّ سوى المثول لأوامر هذا الرنين، وسأفتح الأبواب عند المحطة الأخيرة.

أجابتها عجوز الزهور وكانها تُحدث ذلك الصدى في مخيلتها العتيقة وهي تداعب وريقات باقة الزهور في أحضانها:

– رحلة إن كانت سريعة أم بطيئة إلى أي غاية أريد أن أبلغها، كان أبي رحمه الله دائما يقول ليّ لا تتعجلي الأشياء ابنتي، فلن تنالي من تلك العجالة سوى الحرمان، وها هي الشيخوخة قد داهمتني على عجالة دون علمي.

الشيخوخة بائسة تمامًا تفقدنا كل الامتيازات حين نصل إليها وتحل محلها الخشونة، نعم الخشونة في الجسد والجلد واليدين والقدمين والإحساس لتصل للعقل، فلن يصبح عندها أكثر حكمة كما يدعون ولا أكثر نضجًا.

عرفتُ أن للموت ألوانًا...

وكنت على يقين من أن أحد ألوانه سيكون موتي

التناقضات فينا من خيرها وشرها، وطلب من ملائكته السجود لنا، وفرق بيننا بعد ذلك بين جنة ونار، ولم يحمل عنا وزر خطايانا كما فعلها- المسيح- الطيب.

تلقى أحمد من علي ضربة قوية على بطنه وقال له:

- اصمت أيها المُلحد.

ضحك أحمد وأجابه:

- قبل سنوات طوال قلت لك إنني لست بمُلحد، بل أنا باحث!

- تقصد قبل ساعة!

ردّ عليه وهو بلا وعيّ وفي حيرة مما يراه ويسمعه:

- إذن تريد أن تقول لي إن الموت هو حتمية خطايانا! وعلى افتراض أن ذلك جدل، لماذا أحمل وزر خطايا ارتكبها أبونا، ولم أفعلها انا!؟ وما هذه الحياة إلا تداعيات تلك الخطايا. فالذي يقام على باطل نهايته باطلة! ألا تعتقد أن تلك الخطيئة تسببت في توارث الجنس البشري الميل للخطيئة وأصبحنا جميعا مذنبين أمام الله ومستحقين العقاب، كوننا مولودين بالخطيئة الأصلية، ولم يعتبر آدم خاطئًا نتيجة لما فعله وحسب، بل إن خطأه وعقوبة الموت ينطبق علينا كلنا!؟

أجابه علي وابتسامة رقيقة علت شفتيه:

- بل إن خطيئة آدم لم يتحمل وزرها أولاده، والدليل أن الله لا يحاسبنا على خطيئة أبينا، بل على أخطائنا نحن، ومنحنا الله المقدرة والإرادة الحرة على ألّا نخطئ، أما الموت فهو ليس عقوبة، بل هو الخلود الذي طالما بحث عنه الراغبون في البقاء، وها نحن قد كسبنا حياتين بدل واحدة.

ضحك أحمد واشتعل رأسه بحوار أراد به إغاظة صديقه كما كان يفعل دائمًا:

- يا أخي أي سيناريو هذا، بيد منحنا الله الإرادة الحرة وباليد الأخرى العصا، وتنازل عن الخطايا ليفعلها الشيطان بنا، وزرع جميع

– أيعقل حقًا كما قال هذا المجنون أننا أموات وقد تمّ تفجيرنا بحزامه الناسف!؟

– قبل قليل قلت لك إنني مُتّ قبل هذا فما عاد يهم إن كنت حيًّا أُرزق أو ميتًا ونحن معًا– وراح يضحك من جديد.

– ما الذي تقوله يا علي؟.. قلت هذه الجملة منذ أكثر من عشرين عامًا قبل أن تقتل برصاصة قناص فوق برج المراقبة قبل عشرين عامًا وليس قبل لحظات كما تدعيّ!؟

– أحمد... دائمًا ما كان المرء فريسة لهذا الشعور بكونه عرضة للموت والزوال، ويزداد شعوره إرهاقًا عند موت كل شخص عزيز عليه. فما بالك وشعورك بأني ميت! لكني ها أنا ذا لم أفارقك... أجلس أمامك بشحمي ولحمي.. اهدأ أرجوك.

– علي... إننا ميتون وكل ما عملنا عليه هراء وعبث وحياتنا لم تكن سوى أيام!

– يا صديقي إننا ارتكبنا الخطايا بإرادتنا الحرة، وفضلنا الفناء على الخلود، فأكلنا ثمارًا محرمة، ذلك الذي قادنا إلى الخروج من النعيم إلى الموت. وهناك من عمل مقدمات للحياة الأخرى الأبدية فآمن بحتمية الموت واستسلم له، ولم يبحث عن أسباب قدومه أو مبررات هذا القدوم.. فيا حبيبي إننا أصلًا اموات! وسنصل لمحطاتنا عن قريب.. اهدأ بالله عليك، أراك قد جننت!

تزاحمت التساؤلات في داخله، فحاول السيطرة على رباطة جأشه وأجابه بهدوء:

- إنه موعد عودتي للبيت وهذه حافلتي يا عليّ، بل قل ليّ أنت بربك كيف وصلت إلى هنا وأنا الذي رأيتك هناك مضرج بدمائك...

لم يكمل جملته، لعلَّ عليّ لم يمت وعاد للوطن وتمت معالجته، لكن كيف والرصاصة اخترقت جمجمته وتركته يشقى فراقه!؟

أكمل أحمد تساؤله- آخر مرة كُنَّا معًا في حقل للسنابل حين كنا نريد الهروب من بلدنا إلى البلد الآخر، وعند الحدود أصابك قناص برصاصة في...- لم يستطع نطقها، - كيف استطعت الخلاص!؟

- لا أدري يا أحمد، رأيت حافلة مسرعة مقبلة عليّ، فركبت فيها وها أنا منذ ساعة أروم الوصول لبيتي.. الحمد لله والشكر أنك معي، لكني كنت في الطابق العلوي لم أشاهدك تصعد.

- ماذا تقول؟.. طيلة هذه الفترة أنت في هذه الحافلة؟ إنها سنوات طوال يا علي، أي ساعة تلك التي تتحدث عنها منذ افتراقنا!؟

- أجل لم تمض سوى ساعة أو أقل بكثير. ما بك يا أحمد!؟ لم أتركك مجنونًا. ما الذي حدث في هذه الساعة!؟

وراح عليّ يضحك ملء فمه وأحمد يكاد عقله يخرج من رأسه ليبحث له عن إجابات مقنعة لما يسمع أو يرى في هذه الحافلة، فقال له:

لتصبح الدموع آخر حدود الاشتياق. تذكر وهو ينظر إليه بشوق حلمًا آخر شاهده فيه.

قاسية هي الأحلام التي جمعته بعلي دائمًا كان يكررها مع نفسه. وفي أحد أحلامه كان في حلمه يحلم، والأول يحلم بالثاني، يفتح بابًا، يغلق شباكًا، يمسك بيده مفتاحًا، يبحث في الظلمة عن نور. يرى صديقه علي من بعيد بلا رأس يسير، جسده يترنح بخطى دامية ورأسه على الأرض يتدحرج ككرة قدم تركلها الأقدام، وعيناه مفتوحتان متسمرتان تنظران إليه، الرأس يدور والأرض معه تدور، يركض إليه فيتعثر، تتسمر قدماه ويخنق صوته.

يرى جدرانًا تخرج منها الديدان وهو يتسلقها، يسقط يتحطم جسده وتخرج من فمه الدماء، والبعض ينظرون وآخرون يتهامسون، يرى عجوزًا تُخرج كتب علي من صندوق، وعروس أمامها تحرقها بالتنور، يقطع شريانه بالموسى، الأرض به وبعلي ودماؤهم تدور، ينهض من حلمه وهو يصرخ يستغيث، انقذوني من هذا الكابوس.

سأله عليّ:

- مالذي جاء بك إلى هذه الحافلة يا أحمد!؟

الذي كان يهرب منه جاءه بسؤال، لعل علي حقًا حقيقة أمامه كيف ذلك!؟

كان جميع من في الحافلة يراقبون هذا المشهد بعناية والابتسامة طغت على وجوههم، فعلي ليس مجرد صديق صدوق، بل كان شقيق الروح، غياب طويل موجع، لكنه لم يستطع أن يبني له غربة أو فجوة رغم السنين. فقد كان معه في كل لحظة فراق.

لسانه انعقد لم ينبس بحرف، فقط هي العين التي أحاطته برسائل كثيرة، نشوة حقيقية أعادت إلى قلبه نغمات إلهية وترجمتها عيناه بدموع وابتسامة، كان كل شيء مشتركًا بين العين والقلب.

لم يستطع ترجمة هذه الرسائل خبير أو خطيب، الشوق والفراق موجعان يمزقان الروح، لكنه كان دائمًا يراه في وجوه الآخرين.

كان غيابًا بالجسد وحضورًا دائمًا بالروح، حتى ملامحه تذوي ألمًا حين يسمع اسم علي. كان خائفًا أن يكون هذا حلمًا ويصحو منه بوجع الموت.

قاسية هي الأحلام التي جمعته بعلي لم تمنح صديقه ملامح حقيقية، كانت عيناه دائمًا مصوبتين نحو الأفق دون عينيه وكلما يناديه بصوت مرتفع كان الصوت يعود إليه دون أذنيه، وكل حلم معه يأخذ منه جزءً من الروح لتمضي السنين بعده بلا روح متبقية.

إن كان هذا حلمًا سيكون هو الأوحد الجميل الذي جمعه به اليوم. فلا يريد خسارة تلك السعادة بسؤاله، واكتفى بالنظر إليه

شقَّ أحمد له مكانًا بين الركاب ليصل لصاحب هذا الصوت، انتابته الحيرة والشكوك وتداخل عقله بإحساسه، أخذ يفتش الوجوه المتجمهرة حول الفتاة وهذا المجنون، فلم يجد وجه صديقه، لكنه كان متأكدًا أن الصوت هو صوت علي.. ذلك الصوت الذي نقشته ذاكرته سيمفونية على أوتار قلبه. لم يستطع الصبر ولا البحث. فقد تجمدت ساقيه وعيناه ما زالتا تدوران وتغوصان في ملامح الواقفين والجالسين من الركاب، فصاح بصوت عال:

-هل هذا أنت يا- عليّ- سمعتُ صوتك الآن.. بالله عليك أجبني هل هذا أنت!؟ أم أنا المجنون الثاني في هذه الحافلة!؟ أجبني يا عليّ أنا أحمد صديق عمرك.

تقدم- علي- نحو ذاك الصوت الذي ينادي بمرارة باسمه فردّ عليه:

- ما بك يا أحمد انا هنا!

تمعَّن أحمد في وجه علي، وكأن تلك السنوات ما استطاعت أن تجد لها منفذًا عبر قسمات وجهه. فما زال مفعمًا بالشباب والحيوية.

عانقه بقوة ورفعه من الأرض وراح يدور به كزهرة دوار الشمس وعشقها لذلك الشعاع.